السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

حجة الوداع

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾

(قرآن كريم)

١

سجى الليل ونام الكون وما كان يعكر الصمت الذى ران على مسجد الرسول إلا غطيط أهل الصفة ، ما منهم رجل إلا عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم . كانوا من فقراء المسلمين وكانوا سبعين قد انقطعوا للعبادة وحراسة رسول الله ــ ﷺ ــ وكانوا يلزمونه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يشبع بطونهم ، فإذا أتت رسول الله ــ ﷺ ــ هدية أصاب منها وأشركهم فيها ، وإذا كان فى دوره طعام من لبن أو تمر أخرجه إليهم وتناوله معهم ؛ وما أكثر ما كان يصوم ويصومون .

وفى هجعة الليل سار بلال بينهم على أطراف أصابعه مفتوح العينين خشية أن يدوس أحدهم أو ترتطم رجله بأحد النوام فيوقظه من نومه اللذيذ . وفيما هو يقدر موقع قدميه وقعت عيناه على أبى هريرة عرِّيف أهل الصفة فرفت على فمه ابتسامة ؛ إنه تذكر ما رآه منه فى أول الليل ، كان الصبية يلعبون لعبة الغراب فإذا بأبى هريرة يتسلل إليهم وهم لا يشعرون ، حتى إذا ما صار بينهم ضرب برجليه كأنه مجنون ، ففر الصبية هٰهنا وهٰهنا وهم يتضاحكون .

إنه يحب مداعبة الأطفال ليشرح صدورهم ويدخل السرور إلى نفوسهم ، وكثيرا ما يداعب أصحابه دعابات لطيفة كيسة ، وله فى رسول الله ــ ﷺ ــ أسوة ، فهو يداعب أبناء المهاجرين والأنصار ويقبلهم فى حب أبوى عميق ، ويحملهم أمامه على دابته أو يركبهم خلفه ، ويمزح مع أصحابه ولا يقول إلا صدقا .

وبلغ بلال الدرج فراح يعرج فيه ، حتى إذا صار على السطح الذى يؤذن من فوقه أخذ يرعى النجوم ويمد عينيه إلى الأفق الشرقى ، إنه الفجر الكاذب وما حان أوان الأذان بعد ، فجلس يرصد السماء ، وما لبث أن انثالت الأفكار على رأسه ، ذكريات بعيدة طواها الزمن ولكنها لا تزال حية فى وجدانه ، وذكريات قريبة حبيبة إلى نفسه ينشرح لها صدره ، وآمال لا تزال فى جوف الغيب لا يدرى إذا ما كانت سترى النور يوما .

تذكر أيام كان مولدا من مولدى بنى جمح ؛ كانت أمه حمامة لا تملك من أمرها شيئا ، زوجوها من أبيه رباح لينسلا للسادة عبيدا ، فجاء إلى الدنيا عبدا حياته عبث ونهايته عدم .

وشب لا يعرف من أمر الدنيا إلا أن سيده أمية بن خلف . إن غضب عليه جلده وإن رضى عنه أعطاه من فضل زاده ، وعاش بلا أمل يخرج فى قوافل التجارة كما تخرج السائمة ، ليس له من أمرها ألا شبع بطنه والعرق الذى يتصبب منه إذا ما حمل الأثقال على ظهره ليرفعها إلى ظهور الإبل أو ليحطها عنها ، وما كان له أن يشكو من التعب فما كان للدواب حق الشكوى أو التبرم من حياتها !

ومن خلال ظلمات العدم بزغ النور والأمل ، فصوت أبى بكر الصديق يلامس أوتار قلبه فيهزها فى نشوة وهو جالس يرقب الفجر فوق أعلى بيت فى المدينة مثلما هزها فى تلك الليلة التى قال له فيها لما كان فى مكة : إن محمد بن عبد الله يدعو إلى عبادة الله وحده . وراح يدعوه إلى الإيمان بذلك الدين الذى يثبت الربوبية لرب السموات والأرض وينفيها عن كل الأصنام والأوثان والبشر .

أحس فى تلك الليلة سحر الكلمات التى كانت تسكب فى أذنيه وعظمتها ؛ إنها كلمات قليلة ولكنها فتحت أمامه آفاقا واسعة من الرجاء والأمل . إنه فى لحظة من لحظات العمر الذى كان يبدده سدى تيقن أنه ليس عبدا لأحد من بنى جمح ،

وأنه حر ليس لبشر سلطان عليه ، فهو وأمية بن خلف سواء أمام رب الناس إلٰه الناس ، بل قد يصبح عند الله أفضل من أمية بن خلف إن أحسن العمل .

كانت حريته لا تستند إلى شيء ، وكانت إرادته كلما هفت روحه إلى الحرية تخبو ؛ فالموت الذى سينهى حياته بالعدم كان يقضى على كل إرادة ، ولكن الدين الجديد الذى يدعو إليه أبو القاسم لم يجعل الموت نهاية ، بل هو بداية لحياة أخرى خالدة توفى كل نفس فيها حسابها ، فلم تعد الحياة عبثا ولا حملا ثقيلا بل دار ممر إلى دار مقر ، والعاقل من أخذ من ممره لمقره لينال الفوز الأكبر .

لم يعد يتأرجح بين الوجود والعدم ، تملكه نزوع وجدانى ينشد الحرية المطلقة ، حرية العقل وحرية الاختيار والإرادة . فكلمات أبى بكر قد رفعت عن عين بصيرته الغشاوة فشعرت ذاته بوجودها وحريتها ، وامتلأ قلبه بنور أضاء ذاته العميقة فإذا به يكاد يقرع أبواب ملكوت السماء .

إنه عرف ما يريد بعد تدبر وتفكير فاعتنق الإسلام دون إكراه ، وحمل الأمانة وهو سعيد ، فقد عزم على أن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، وأن يعانى الحياة فى صبر بعد أن بدد ظلمات وجوده واهتدى إلى اليقين المبين .

خرج بنو جمح لما حميت الظهيرة فطرحوه فى بطحاء مكة ثم أمروا بالصخرة العظيمة فتوضع فوق صدره ، ثم قالوا له :

ـــ لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .

كان إيمانه أرسخ فى ذاته الحية التى شحذها الإسلام من تلك الصخرة العظيمة التى تكاد تكتم أنفاسه ، وكانت إرادته أمضى مما نزل به من بلاء فراح يقول :

ـــ أحد .. أحد .

ونزل نشيده بردا وسلاما على فؤاده ، فلم يكتف بالثبات على دينه بل جعل

يسخر من معذبيه . وجاء أبو بكر الصديق ورأى ما يقاسيه من تعذيب فأنقذه مما كان فيه ، وأخذه فأعتقه فتحرر الجسد بعد أن تحررت الروح .

وأشرق وجوده وابتهج به فالدين الذى اعتنقه يعبر عن صوت العقل ، عن جوهر الذات المتعالية ؛ ينمى فى النفوس الخير ويسد جميع المسالك فى وجه الشر ، ما دام الخير والشر لا وجود لهما إلا فى عين إرادة البشر .

كان سعيدا بحرية روحه وجسده ، وبالطمأنينة التى شاعت فى وجدانه ، وبالتجانس الذى بات يحسه فى نسيج الكون بعد أن كانت الفوضى سمته ، والتنافر صفته ، وزاد فى سعادته أنه تعلم بعد الهجرة إلى المدينة أن الله قد خلق آدم ليكون خليفته فى الأرض ، فبنو آدم قد أصبحوا خلفاء لله بسلطان العلم الذى علمهم ، وبثقل الأمانة التى حملهم ؛ وإنه شرف يشارك فيه إخوانه من البشر ، وإنه ليعمل مع إخوانه المؤمنين على توكيد استحقاق الإنسان لهذه الخلافة وهذا الشرف . وقد زكاهم الله بقوله العظيم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ... »[1] .

إن صراع الذات مستمر ، وسمو النفس فوق الأهواء يشتد عوده ، والنزوات تتحطم عند حدود الله ، والإحساسات الدينية السامية تزداد إرهافا . وذلت عبودية المادة بعد أن أغلقت الأفئدة المؤمنة الأبواب دونها ، ورفعت الأقنعة عن الحرية الراشدة ووجدت على ظهر الأرض الحياة الروحية الحقة القادرة على طرق أبواب السماوات ، فكان الإنسان فى أروع صورة وأحسن تكوين .

وطافت به ذكريات أيام الخندق ، فرأى سلمان الفارسى يضرب فى ناحية منه فغلظت عليه صخرة ورسول الله ﷺ قريب منه ، فلما رآه يضرب ورأى

---

(١) آل عمران ١١٠

شدة المكان عليه نزل فأخذ بالمعول من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، قال سلمان :

ـــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟

ـــ أوَقد رأيت ذلك يا سلمان ؟

ـــ نعم .

أما الأولى فإن الله فتح علىّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح علىّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علىّ بها المشرق .

كان بلال على يقين من أن الله قد أعطى رسوله ـــ ﷺ ـــ مفاتيح تلك البلاد ، وأن المسلمين سيفتحونها ، فما ساوره فى ذلك شك ، ولكن سؤالا قام فى نفسه : ترى أيقدر له أن يؤذن فى صنعاء أو منف أو دمشق ؟

إن الله قد أكرمه يوم فتح مكة ، فقد اعتلى ظهر الكعبة أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين ليؤذن فى ضمير الكون معلنا تحرير البشرية من العبودية لغير الله وحده ، وبزوغ شمس الحرية الكبرى ، وبداية عصر القيم والمثل العليا .

ورن فى عين ذاته ذلك الدعاء الذى سمعه ذات ليلة فى مسجد الرسول : « اللهم اجعلنى ممن سيلقون أسماعهم إلى أذان بلال فى الجنة » . فسرت فيه قشعريرة وبللت الدموع روحه قبل أن تبلل مقلتيه ، وأطرق برأسه تواضعا لله وشكرا حتى كادت جبهته تلمس الأرض .

وبدأت طلائع الفجر تزحف فى الأفق الشرقى فراح صوت بلال يدعو الناس إلى الصلاة ، إلى استفتاح يومهم بلقاء الله لتطهير النفوس وتطبيب الروح واستدرار البركات ؛ فما أروع أن يبدأ اليوم باسم الله وذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

* * *

وقام سلمان الفارسى يتوضأ وكل خلجة من خلجات نفسه تتجه إلى الله وتسبح بحمده ، فهو يعيش بالله وفى الله ؛ فخفقات قلبه شكر ومضات فكره ذكر ؛ فقد كان فى بيت أبيه خادم نار المجوس ولكن الرحمن الرحيم أراد له الرشد والهداية فبذر فى أعماق ذاته الشك ووهبه نفسا تهفو إلى الحق ، فما إن مر بكنيسة من كنائس النصارى وسمع أصواتهم فيها وهم يصلون حتى دخل عليهم ينظر ما يصنعون ، فلما رآهم أعجبه صلاتهم ورغب فى أمرهم وقال دون استكبار : هذا والله خير من الدين الذى نحن فيه .

كان يريد وجه الحقيقة أينما كانت وقد برأه الله من الهوى ، فلما علم أن أصل ذلك الدين بالشام لم يفكر فى أبيه ولا فى أهله ولا فى قريته ، بل شد الرحال إلى الشام باحثا عن إيمان يستريح إليه فؤاده .

وجاء إلى الأسقف فى كنيسته وراح يخدمه ويتعلم منه ويصلى معه ، ولكنه وجد الأسقف يعمل غير ما يقول ، يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ، فلم يسخط على الدين بل سخط على رجل السوء ، وبقى فى الكنيسة ثم رحل من الشام إلى الموصل بحثا عن الحقيقة ، ولم تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبه فشد الرحال إلى نصيبين ثم إلى عمورية فى أرض الروم ، وهناك علم أنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث على دين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب .

نبى ؟! يا ليته يستطيع أن يلقاه ليجد عنده جوهر الحقيقة التى ترك الأهل والخلان والأوطان فى سبيلها . وجاءه الفرج فقد مرت به قافلة من العرب فالتمس منهم أن يحملوه إلى أرضهم التى أصبحت حلمه ومهوى فؤاده ومحط آماله . وبلغوا وادى القرى فظلموه وباعوه إلى رجل يهودى عبدا .

إن ابن دهقان قرية جى بأصبهان المجوسى خادم النار الذى هام على وجهه فى الأرض بحثا عن الحقيقة قد أصبح عبدا اليهودى . ولم يدر ما حكمة صيرورته عبدا ولكن ظل قلبه عامرا بالإيمان بأن الله الذى خرج للبحث عنه لن يضيعه ، وكان أن تعلم العربية لغة ذلك النبى المنتظر ، وكانت حكمة الله التى غابت عنه أن يتعلم لسان القرآن الذى سيشفى نفسه وينير فؤاده بأنوار اليقين .

وقدم على اليهودى الذى اشتراه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعه منه فاحتمله إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رآها فعرفها بصفة صاحبه فبات يتحرق شوقا للقاء ذلك النبى الذى بشر به الأنبياء ، واحتمل الرق صابرا فى سبيل أن يكون له شرف أن يلقاه ويلقى إليه السمع والفؤاد .

وهاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، وسمع به فإذا برعدة تسرى فى بدنه وإذا بكيانه كله ينتفض وإذا به ينطلق إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رآه وأصغى إلى حكمته خفق قلبه فى رضا ، وتيقن أن ذلك الحديث الذى ينبض بالصدق هو ما هجر كل مباهج الدنيا فى سبيله ، وبهرته الحقيقة وغمره فرح فياض أن عثر على ضالته المنشودة ، فنطق بالشهادتين فى صوت متهدج تخنقه العبرات من فرط الانفعال .

وعلم رسول الله — ﷺ — أن سابق الفرس عبد ليهودى من بنى قريظة ، ولما كان رسول الإسلام قد بعث لتحرير النفوس والرقاب قال :

— كاتب يا سلمان .

وهرع سلمان إلى اليهودى الذى اشتراه وراح يفاوضه على تحريره من الرق

والعبودية ، فكاتبه صاحبه على ثلاثمائة نخلة يحييها له بالحفر والغرس ، وأربعين أوقية ، فقال رسول الله — ﷺ — محرر الأرواح والرقاب — لأصحابه :

— أعينوا أخاكم .

فأعانوه بالنخل ، الرجل بثلاثين من فراخ النخل الصغار ، والرجل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة ، والرجل بعشر ؛ يعين الرجل بقدر ما عنده ، فقد كان المسلمون يحبون أن يروا إخوانهم فى الدين أحرارا من أغلال الرق البغيض .

واجتمع له ثلاثمائة من فراخ النخل الصغار ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— اذهب يا سلمان ففقر[1] لها ، فإذا فرغت فأتنى أكن أنا أضعها بيدى .

وحفر وأعانه أصحابه ، حتى إذا فرغ جاء رسول الله — ﷺ — فأخبره ، فخرج عليه السلام معه إليها ، فجعلوا يقربون إليه فراخ النخل الصغار ويضعها رسول الله — ﷺ — بيده حتى فرغوا ، فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها واحدة .

وأدى سلمان النخل وبقى عليه المال ، فأُتى رسول الله — ﷺ — بمثل بيضة الدجاجة من ذهب ، فقال لسلمان :

— خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان .

فأخذها فوزن لهم منها أربعين أوقية فأوفى صاحبه حقه منها ، وأصبح سلمان حرا فخر ساجدا لله شكرا أن حرره من رقه ، وأن كشف له عن وجه الحقيقة ، وأن افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وأن جعله صاحب رسوله المصطفى عليه السلام .

وتذكر سلمان وقلبه يخفق سعادة ما كان بين المهاجرين والأنصار من شأنه ،

---

(١) فقر : احفر .

قال المهاجرون سلمان منا ، وقال الأنصار بل سلمان منا ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ سلمان منا أهل البيت .

وكان بعض المسلمين الذين لم يتخلصوا بعد من روح الجاهلية يعيرون بلالا بأنه حبشى وأن أمه سوداء، وكانوا يعيرون سلمان بأنه فارسى. فقضى رسول الله ـــ ﷺ ـــ على هذه النعرة التى لا تتفق مع دين الإنسانية جمعاء ، فقال عليه السلام :

ـــ « يأيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، ليست العربية بأحد كم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » .

وأتم سلمان وضوءه فخرج إلى المسجد وقد أشرقت أنوار المعرفة فى فؤاده ، فهو على نور من ربه ، قد ارتفعت الحجب عن عين بصيرته بلطف خفى من مولاه ، فلمع فى قلبه من وراء الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف بالزهد فى الدنيا ، والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، فمن كان لله كان الله له .

* * *

وخرج على بن أبى طالب إلى المسجد تتحرك شفتاه ببعض ما فى صدره من كنوز علمه ، وقد اتجهت عيناه إلى الباب الذى سيخرج منه رسول الله ـــ ﷺ ـــ حبيبه ومعلمه وقدوته وأب زوجه الزهراء وجد ولديه الحسن والحسين .

أصابت قريش أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ للعباس عمه وكان من أيسر بنى هاشم :

ـــ يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه

الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، أخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه .

فقال العباس :

— نعم .

لم ينس رسول الله — ﷺ — قبل أن يبعث ليتمم مكارم الأخلاق أن أبا طالب قد كفله صغيرا وأن الأوان قد آن ليرد للشيخ بعض أفضاله ، فانطلق مع عمه العباس حتى أتيا أبا طالب فقالا له :

— إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

— إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما .

وكان مما أنعم الله به على علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه كان فى حجر رسول الله — ﷺ — قبل الإسلام ، وفى بيت خديجة بنت خويلد فلم يبهره ما فى الدار من فاخر الرياش بل كان مأخوذا بابن عمه ، وبذلك النور الذى كان يملأ الغرفة التى أعدها ابن عمه لعبادته .

وكان الصبى يجلس إلى ميسرة غلام خديجة يسمع منه فى إعجاب ما كان من أبى القاسم لما خرج معه إلى الشام فى تجارة مولاته ، إن محمدا قد أسر الناس فى الأسواق بيسره ودماثة خلقه ولين جانبه . وكان ميسرة يقول فى حماس . إن أبا القاسم قد خلق ليكون أعظم تاجر فى جزيرة العرب وإن أمانته تؤهله لذلك ، ولكن عليا على الرغم من صغر سنه كان يستشعر فى أعماقه أن ابن عمه قد خلق لشىء أعظم من ذلك ، فهو زاهد فى عرض الدنيا لا يحفل كثيرا بالمال ، وهو ينفقه إنفاق من لا يخشى الفقر ، فهو جواد كالغيث كريم كالسحاب .

وجاء ما أكد حدس الصبى فبعث الله رسوله بشيرا ونذيرا للناس كافة ، فآمن به وصدّق بما جاءه من الله تعالى ، وكان إذا حضرت الصلاة خرج رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب وهو ابن عشر سنين مستخفيا من أبيه ، ولكن أبا طالب عثر عليهما يوما وهو يصليان ، فقال لرسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا بن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟

ـــ أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه .

ـــ أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت .

قطب الصبى جبينه وطاف به حزن ، كان يطمع فى إسلام أبيه ، وقد خفف من لوعته أن الأمل فى إسلام أبى طالب كان يراوده ما دام أبو طالب حيا ، ولكن أبا طالب قد وافاه أجله دون أن يربط لسانه بشهادة الحق ؛ كان فى قرارة نفسه يؤمن أن الله أكبر من أن يبعث بشرا رسولا . إن عليا كرم الله وجهه كلما تذكر أن الشيخ مات على الكفر أحس غصة فى حلقه ودموعا تبلل مقلتيه .

إنه فى تلك الليلة التى هاجر فيها الرسول ـــ ﷺ ـــ نام على فراشه وتسجى ببرده الحضرمى الأخضر ، ولم ترتعد فرائصه وإن كان يعلم أن قريشا اجتمعت على باب الرسول يرصدونه حتى ينام ليثبوا عليه ويضربوه ضربة رجل واحد ، وأنهم قد يدخلون عليه فى أية لحظة ينتهبونه بأسيافهم .

كان هادئ النفس مطمئن الفؤاد فهو منذ أعلن إسلامه قد وطد العزم على أن يكون نحره قبل نحر رسوله ، وأن يفدى ابن عمه الذى اصطفاه ربه بالروح ، وهاجر الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ولم يخلص إلى على شىء يكرهه من أعداء الإسلام ، فراح على يؤدى الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول

الله ــ ﷺ ــ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ــ ﷺ .

وهاجر إلى المدينة ونزل بقباء ليلتين ، فرأى امرأة مسلمة لا زوج لها يأتيها إنسان فى جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئا معه فتأخذه ، فاستراب بشأنه فذهب إلى المرأة وقال لها :

ــ يا أمة الله من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئا لا أدرى ما هو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟

ــ هذا سهل بن حنيف بن واهب قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءنى بها فقال احتطبى بهذا .

وكانت صداقة بينه وبين سهل بن حنيف ، ولم يدر فى خلده فى ذلك الوقت أن سهلا سيقف إلى جانبه فى الفتنة الكبرى ، وأنه سيهلك عنده بالعراق .

وآخى رسول الله ــ ﷺ ــ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال :

ــ هذا أخى .

واشتد وجيب قلب الفتى وامتلأ صدره رضا ، فإمام المتقين ورسول رب العالمين قد أعلن على الملأ أنه قد آخى بين نفسه التى لا نظير لها فى العباد وبين ابن عمه الذى شبَّ فى حجره يغترف من نبع الحكمة ، ويروى ذاته المتعطشة إلى العلم من أنهار المعرفة المتدفقة من لدن العليم الخبير إلى صدر رسوله المصطفى الأمين .

وكان الفتى رفيق عمار بن ياسر فى غزوة العشيرة ، فلما نزلها رسول الله ــ ﷺ ــ وأقام بها رأيا أناسا من بنى مدلج يعملون فى عين لهم وفى نخل ، فقال على ابن أبى طالب لعمار :

ــ يا أبا اليقظان هل لك فى أن نأتى هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون ؟

ـــ إن شئت .

فجاءاهم فنظرا فى عملهم ساعة ، ثم غشيهما النوم فانطلقا حتى اضطجعا فى صفار النخل وفى تراب لين فناما ، فوالله ما أيقظهما إلا رسول الله ـــ ﷺ ـــ يحركهما برجله وقد تترابا من ذلك التراب اللين الذى ناما فيه ، فيومئذ قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لعلى :

ـــ مالك يا أبا تراب ؟

لما يرى عليه من التراب ، ثم قال :

ـــ ألا أحدثكما بأشقى النار رجلين ؟

ـــ بلى يا رسول الله .

ـــ أحيْمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذه ـــ ووضع يده على قرنه ـــ حتى يبلل منها هذه ـــ وأخذ بلحيته .

وكانت كنية أبى تراب أحب كناه إلى نفسه .

وخرج المسلمون إلى بدر وكانت إبل أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ يومئذ سبعين بعيرا فاعتقبوها ، فكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وعلى بن أبى طالب ومرثد ابن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة مواليا رسول الله ـــ ﷺ ـــ يعتقبون بعيرا ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، أين ذلك اليوم من يوم حنين ؟ كانوا يوم بدر قلة ولكن قلوبهم عامرة باليقين ، وكانوا يوم حنين يقولون فى غرور لن نغلب اليوم عن قلة ، بينما كان فيهم منافقون يترصدون الأحداث لينفثوا سموم الهزيمة فى قلوبهم .

وقتل على بن أبى طالب يوم بدر الوليد بن عتبة فبذر بذرة الكراهية فى قلب أخته هند بنت عتبة ، فكانت تربى ابنها معاوية بن أبى سفيان على كراهية ابن أبى

طالب . ولم ينج بيت من بيوت قريش من سيف على بن أبى طالب البتار ، فقد قتل منهم سبعة وثلاثين رجلا ، فكانت قريش كلها تتحرق شوقا للثأر من ربيب محمد وفارسه . وقد دخلت قريش كلها فى الإسلام بعد فتح مكة ولم تخمد نار العداوة لفتى الإسلام بل ظلت ذمنة تحت الرماد ، حتى إذا ما هبت رياح الفتنة بعد مقتل عثمان تأججت نيران الثأر القديم والحقد الدفين ليكتوى بها الإمام .

وكان يوم أحد ، فراح مصعب بن عمير يقاتل دون رسول الله ــ ﷺ ــ وهو يحمل لواء المهاجرين ، وقتل مصعب فأعطى رسول الله ــ ﷺ ــ اللواء علىّ بن أبى طالب فتقدم على فقال :

ــ أنا أبو الفُصم[1] .

فناداه أبو سعد بن أبى طلحة وهو صاحب لواء المشركين ، قال فى سخرية :

ــ هل لك يا أبا الفصم فى البراز من حاجة ؟

ــ نعم .

فبرزا بين الصفين ، فاختلفا ضربتين فضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه فقال له أصحابه :

ــ أفلا أجهزت عليه ؟

ــ إنه استقبلنى بعورته فعطفتْنى عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله .

كانت ضربة فتى الإسلام وترا فما كان فى حاجة إلى أن يجهز على الرجل فضربته قاتلة ليس لها دواء .

وعصى الرماة أوامر النبى ــ ﷺ ــ فكانت الهزيمة ، ولما انصرف أبو سفيان

---

(١) الفصم : كسر بغير بينونة ، ككسر القضيب الرطب ونحوه .

ومن معه نادى :

ـــ إن موعدكم بدر للعام القابل .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لرجل من أصحابه :

ـــ قل نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ على بن أبى طالب فقال :

ـــ اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم .

فخرج على فى آثارهم وقد امتلأ شفقة على المسلمين ، فعبد الرحمن بن عوف أصيب فوه فهُتم ، وجُرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها فى رجله فعرج ، وترس دون رسول الله ـــ ﷺ ـــ أبو دجانة بنفسه يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته ، وكسرت رباعية النبى ـــ ﷺ ـــ وشج فى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ، وقتل « أسد الله » حمزة بن عبد المطلب ، وقتل رجال من الأنصار والمهاجرين ، وأصاب الجهد المسلمين .

وجنب أبو سفيان ومن معه الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، فاستشعر على راحة وتنفس الصعداء فلن يكون قتال فى المدينة بين المسلمين المثخنين بالجراح وبين أعدائهم الذين فضلوا أن يعودوا إلى مكة وفى ركابهم نصر ، وإن لم يكن نصرا حاسما ولكنه نصر على أى حال .

وعاد رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى داره ومعه ربيبه وحبيبه وأخوه على بن أبى طالب ، وناول عليه السلام سيفه ابنته فاطمة فقال :

ـــ اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

وناولها على بن أبى طالب سيفه فقال :

ـــ وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجانة .

وساد الصمت برهة ، ثم قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لعلى :

ـــ لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا .

وصدق رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فما أصاب المشركون منهم مثلها حتى فتح الله عليهم مكة .

وجاءت قريش بزهوها يوم الخندق إلى المدينة وهى تحرض القبائل على المسير معها ، فعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن عبد ود وهبيرة بن أبى وهب المخزوميون ، وضرار بن الخطاب الشاعر ابن مرداس تلبسوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا :

ـــ تهيئوا يا بنى كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم .

ثم أقبلوا تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا :

ـــ والله إن هذا لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج على بن أبى طالب عليه السلام فى نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تسرع نحوهم ، وكان عمرو به عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلما ليرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال :

ـــ من يبارز ؟

فأراد على بن أبى طالب أن يتقدم لمبارزته ولكن رسول الله ـــ ﷺ ـــ حال بينه وبين ذلك ، فقد قتل يوم بدر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه الحارث ، وقتل يوم أحد عمه حمزة بن عبد المطلب ، وهو يخشى أن يقتل فى هذه الغزوة ربيبة وحبيبه وزوج الزهراء ، ولكن عليا صمم على قتال ابن عبدود فراح رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ يبتهل إلى الله فى حرارة أن يبقى له خير أهله الذى نشأ فى حجره ، والذى أحبه من كل قلبه .

وبرز على بن أبى طالب لعمرو بن عبد ود فقال له :

ـــ يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

ـــ أجل .

ـــ إنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام .

ـــ لا حاجة لى بذلك .

إن ربيب محمد ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ قد حفظ الدرس الذى لقنه رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ للمسلمين : أن يعرضوا السلام قبل القتال ، فالله لا يحب المعتدين ، وقد دعا ابن أبى طالب عدوه إلى الله فأبى ، فقال له على بعد أن يئس من سلمه :

ـــ فإنى أدعوك إلى النزال .

ـــ لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

ـــ لكنى والله أحب أن أقتلك .

فاشتد غضب عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علىّ فتنازلا وتجاولا ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يبتهل فى حرارة ويدعو ربه أن ينصر ابن عمه ولا يفجعه فيه ، وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ، وأعلنت